لقاء مع شاعر جاهلي

بقلم: د. زيد بن محمد الجهني*
السعودية

هذا لقاء تربوي مع شاعر من شعراء العربية ذوي القصائد الواحدة، أي الذي ذاع من شعره قصيدة واحدة أو قصيدتان، وهو ثابت بن أوس الزهراني الأزدي الملقب بالشنفرى أحد صعاليك العرب وعدائيهم المشهورين، والصعاليك هم جماعة من الفقراء الشجعان ذوي الجرائر والإغارات الكثيرة على القبائل، مما تسبب في تخلي قبائلهم عنهم، فاضطروا إلى العيش جماعات صغيرة، لها نظرتها الخاصة في الحياة من حيث كراهتهم للذل والضيم وصبرهم على الوحدة والغربة، ودربتهم على العيش في الصحاري والفلوات.

ولقاؤنا اليوم مع شاعرنا الشنفرى الذي عُرف بقصيدته اللامية، المعروفة لدى الأدباء بلامية العرب، وقد تمتعت بشهرة واسعة، لما فيها من القيم الخلقية الرفيعة، ولذا أثر عن عمر رضي الله عنه أنه قال: (رووا أبناءكم قصيدة الشنفرى).

وللشاعر قصيدة أخرى تائية من مختار المفضل في كتابه[1]، لا يقل عنها قيمة تربوية ولا قيمة فنية. ولعلنا من خلال هذا اللقاء المتخيل معه نجد المتعة والفائدة التربوية المرجوة.

* الجامعة الإسلامية - المدينة المنورة

❖ وفي بداية اللقاء نرحب بشاعرنا وعدائنا المشهور، وبحكم خبرته بالدنيا، نسأله سؤالنا الأول: عن نظرته إلى هذه الدنيا.

❖❖ يا أخا العرب! إنني لم أذق حلاوة للدنيا إلا بالوحدة والبعد عن الناس لسوء أخلاقهم، ومع ذلك فالدنيا زائلة وكل راحل عنها كما قلت:

لقد حُمّت الحاجات والليل مقمر
وشُدّت لطيات مطايا وأرحُلُ

❖ جوابك هذا يفتح الطريق لمخيلتي إلى سؤالين اثنين: أولهما: لماذا لم تذق طعم الحياة؟ وثانيهما: ماذا رأيت من سوء أخلاق الناس؟

❖❖ سؤالاك هذان -يا فتى- يعيدان عليّ صوراً من الحياة المريرة التي قاسيتها، فقد نشأت في بني سُلامان صبياً أُعد نفسي منهم، فلما تكشفت لي الحقيقة وعلمت أنني مستبعد فيهم بعد قتلهم أبي، حلفت أن أثأر منهم بقتل مئة رجل، وبدأت أغيرُ عليهم وأقتل منهم فصرت كما قلت:

طريد جنايات تياسرن لحمه
عقيرته لأيّها حُمّ أولُ
تنامُ إذا ما نام يقظى عيونها
حثاثاً إلى مكروهه تتغلغلُ

ولاشك -يا فتى- أن ذلك جر عليّ الهموم الكثيرة التي كنت أصارعها، أحاول طردها ولكنها تتضاعف علي، ولذا قلت:

وإلفُ همومٍ ما تزال تعوده
عياداً كحمى الرّبع أو هي أثقلُ
إذا وردت أصدرتها ثم إنها
تؤوب فتأتي من تُحيتُ ومن علُ

وأما جواب ثانيهما: فإني رأيت في أخلاق الناس سوءاً كثيراً، ولعل أسوأ ما رأيت إفشاء الأسرار وخذلان المحتاج إليهم فلا ينصرونه، وعدم مجازاة المحسن على إحسانه، وعدم الإيناس عند المحادثة، ولذا استعضت عمن هذه صفته بستة أصحاب: بثلاثة من حيوانات البرية الأسد والنمر والضبع وقد قلت فيهم:

ولي دونكم أهلون سيُد عَمَلَّس
وأرقطُ زهلول، وعرفاء جيألُ
هم الأهلُ لا مستودع السر ضائعٌ
لديهم، ولا الجاني بما جر يُخذلُ

وأما الثلاثة الآخرون ففؤادي الذكي، وسيفي الصقيل، وقوسي الطنانة، وقد قلت فيهم:

وإني كفاني فَقْدَ من ليس جازياً
بحسنى ولا في قربه متعللُ
ثلاثةُ أصحاب فؤادٌ مشيعٌ
وأبيضُ إصليت، وصفراء عيطلُ

❖ اتضح لي من كلامك أنك وجدت في الأرض ملاذاً التجأت به من الضيم والذل، أليس كذلك؟

❖❖ أجل يا أخا العرب ألم تسمع بقولي:

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى
وفيها لمن خاف القلى مُتعزلُ
لعمرك ما في الأرض ضيقٌ على امرئ
سرى راغباً أو راهباً وهو يعقلُ

وانتبه لشرطي الأخير (وهو يعقل) فقد غفل عنه الكثيرون فهلكوا.

وهناك شرطان آخران يجب أن يتصف بهما من يضرب في الأرض هارباً من الضيم هما: الخبرة في الأرض والاهتداء في مسالكها، والفراسة في مواطن مياهها وأماكن الاختباء فيها، وعدم الفزع من السير فيها ليلاً، والثاني: الصبرعلى الجوع مهما اشتد، والصبر كله محمود، وقد سجلت هذه التجربة في لاميتي بقولي:

ولستُ بمحيار الظلام إذا انتحتْ
هدى الهوجَل العسّيف يَهماء هوجلُ
أُديم مطال الجوع حتى أميته
وأضرب عنه الذكر صفحاً فأذهلُ
وأستفُ ترب الأرض كيلا يرى له
عليّ من الطول امرؤ متطولُ
وأطوي على الخَمْص الحوايا كما انطوت
خيوطةُ ماريٍّ تغار وتُفتلُ

ولقد شبهت صبري على الجوع بصبر الذئب فقلت:

وأغدو على القوت الزهيد كما غدا
أزلُّ تهاداه التنائف أطحلُ
غدا طاوياً يعارض الريح هافياً
يخوت بأذناب الشعاب ويعسلُ

فلما لواه القوتُ من حيث أمَّه

دعا، فأجابته نظائر نُحَّلُ

مهللةٌ شيب الوجوه كأنها

قداحٌ بكفي ياسرٍ تتقلقلُ

مُهرَّتة فوه كأن شُدوقها

شقوق العصيِّ كالحات وبسَّلُ

فضجَّ وضجَّت بالبراح كأنها

وإياه نوحٌ فوق علياء ثكَّلُ

وأغضى وأغضَتْ واتَّسى واتَّستْ به

مراميل عزَّاها وعزَّته مرملُ

شكا وشكت ثم ارعوى بعد وارعوت

وللصبرُ إن لم ينفع الشكو أجملُ

وفاءَ وفاءتْ بادرات وكلها

على نكظ مما يكاتم مجملُ

ولحرصي على الصبر صرت مولى له لشدة صبري.

فإما تريني كابنة الرمل ضاحيا

على رقة أحفى ولا أتنعلُ

فإني لمولى الصبر أجتابُ بُزَّه

على مثل قلب السمع والحزمُ أفعلُ

❖ لقد خبرت الحياة يا شنفرى، ولاشك أن لك خبرة بالرجال، فما أسوأ ما خبرت من صفاتهم؟

❖❖ نعم يا ابن أخي: لقد عرفت الرجال فتبرأت من خمسة رجال ذوي صفات سيئة أولهم: الرجل المهمل لما يسند إليه من عمل، وثانيهم: الرجل الضعيف الرأي الذي لا يخرج عن رأي امرأته. وثالثهم: الرجل الجبان الذي إذا حَزَبَهُ أمرٌ علا نفسه الوهن، وعلته رعدة، ورابعهم: الرجل الخؤون لجيرانه يخلفهم على بيوتهم يغازل نساءهم حال انشغال بعولتهن. وخامسهم: الرجل الذي شرُّه أسبق إلى الناس من خيره مع عي في المنطق، وهوج وحمق، وعدم القدرة على الدفاع عن نفسه.

وقد صورتهم بلاميّتي فقلت:

ولستُ بمهياف يعشي سوامه

مجدعةً سقبانها وهي بُهَّلُ

ولا جبء أكهى مربٍّ بعرسه

يطالعها في شأنه كيف يفعلُ

ولا خرقٍ هيق كأن فؤاده

يظل به المكاء يعلو ويسفلُ

ولا خالف دارية متغزل

يروح ويغدو داهناً يتكحلُ

ولست بعلٍ شره دون خيره

ألفَّ إذا ما رُعْته اهتاج أعزلُ

❖ إنها صفات سيئة تستحق الذم والتبرؤ منها، فهل لك نظرة في صفات النساء.

❖❖ أجل، لكنني اكتفيت بذكر محاسن أم عمرو زوجي، ومن وصفي الخلقي لها يمكنك استنتاج الصفات الحسنة والسيئة في المرأة، وهاك الأبيات:

فواكبداً على أميمة بعدما

طمعت، فهبها نعمة العيش زلَّت

فيا جارتي وأنت غير مُليمة

إذا ذكرت، ولا بذات تقلت

لقد أعجبتني لا سقوطاً قناعُها

إذا ما مشت، ولا بذات تلفت

تبيتُ بُعيد النوم تهدي غبوقها

لجاراتها، إذا الهدية قلَّت

تحل بمنجاة من اللوم بيتها

إذا ما بيوت بالملامة حُلت

كأن لها في الأرض نسياً تقصه

على أمها، وإن تكلمك تبلت

أميمة لا يخزي نثاها حليلها

إذا ذكر النسوان عفت وجلت

إذا هو أمسى آب قرة عينه

مآب السعيد لم يسلْ أين ظلت

ألم تسمع يا ابن أخي عن هذه الأبيات من قبل؟

بلى يا عم! إنها أبيات أشاد بها الراوية الأصمعي، فوصفها بأنها أحسن ما قيل في خفر النساء.

❖ جميل هذا الوصف يا شنفرى ولكن ألك شيء من الغزل؟

❖❖ إن غزلنا نحن الصعاليك غزل عفيف نكتفي منه بالكنايات والإيجاز الشديد، لقلة الوقت لدينا، فنحن قوم فقراء مشغولون بالقوت، وكثرة الغزل تدل

على البطالة. وهي قضاء للوقت فيما لا طائل تحته، ولعل بيتي اللاحق للأبيات السابقة بما حوى من كنايات يعد أروع بيت غزلي:

فدقَتْ وجلَتْ واسبكرَّتْ وأكملَتْ
فلو جُنَ إنسان من الحسن جُنتِ

وبعده:

فبتنا كأن البيت حجْر فوقنا
بريحانة ريحت عشاء وطُلَّت
بريحانة من بطن حلية نورتْ
لها أرج ما حولها غير مُسنتِ

❖ لقد ابتعدنا قليلاً عن شخصية ضيفنا، فإليك نقدم عذرنا، ونود منك أن تحدثنا عن عَدُوك من وصفك لنفسك.

❖❖ آه .. ألا ليت الشباب يعود يا بني يكفيك من وصف شدة جريي قولي:

إذا الأمعز الصوان لاقى مناسمي
تطاير منه قادح ومفلل
وتشرب أسآري القطا الكدر بعدما
سرت قرباً أحشاؤها تتصلصلُ
هممْتُ وهمَّتْ وابتدرنا وأسدلَتْ
وشمر مني فارط متمهلُ
فوليت عنها وهي تكبو لعقره
يباشره منها ذقون وحوصلُ
وخرق كظهر الترس قفر قطعته
بعاملتين ظهره ليس يعملُ
فألحقت أولاه بأخراه موفياً
على قنَّة أقعي مراراً وأمثلُ

لقد كان من جريي أنني أسيرٌ في ظلمة الليلة القارسة وأغير على أعدائي فأقتل منهم دون أن يشعروا بي فيتساءلون عني: أطاف بنا البارحة ذئب أو ضبع، أصوَّت من حولنا قطاة أو صقر، أو طرقنا جني أو إنسي؟ لكن الإنس لا تفعل ذلك:

وليلة نحس يصطلي القوس ربُّها
وأقطُعه اللائي بها يتنبلُ
دغشت على غطش وبغش وصحبتي
سُعار وإرزيز ووجر وأفكلُ
فأيمَّت نسواناً وأيتمت ولدةً
وعدت كما أبدأت والليل أليلُ
وأصبح عني بالغميصاء جالساً
فريقان مسؤول وآخر يسألُ
فقالوا: لقد هرت بليل كلابنا
فقلنا: أذئب عسَّ أم عسَّ فرعلُ
فلم تكُ إلا نبأة ثم هوَمت
فقلنا: قطاة ريع، أم ريع أجدلُ
فإن يكُ من جن لأبرح طارقاً
وإن يكُ إنساً ماكها الإنس يفعلُ

❖ اسمح لي بهذا السؤال قبل الأخير يا شنفرى، فمما هو معروف عنكم معشر الصعاليك القوة والتوحش ومعاداة الناس.. فهل هذا صحيح عنكم؟

❖❖ يا فتى! تلك صفات موجودة فينا حقيقة، لكننا لا نعادي إلا من عادانا، ولا نعتدي إلا على أموال البخلاء نطعمها للبائسين الفقراء، ألم تسمع قولي:

وإني لحلو إن أريدت حلاوتي
ومر إذا نفس العزوف استمرتِ
أبيٌّ لما آبى سريعٌ مباءتي
إلى كل نفسي تنتحي في مسرَّتي

❖ ما مدى خوفك من الموت ما دامت الصعلكة مهنة لك، لأن أعداءك كثر؟

❖❖ إيه.. يا أخا العرب! إن الموت حق، وهو واقع على كل نفس، وقد قلت:

إذا ما أتتني ميتتي لم أُبالها
ولم تذرِ خالاتي الدموعَ وعمتي
ولو لم أرم في أهل بيتي قاعداً
إذن جاءني بين العمودين حمَتي

يا ثابت بن أوس الأزدي لقد أتحفتنا بتجربتك القاسية في هذه الحياة، والتي عبرت عنها في شعرك. وكم أتمنى من شداة الأدب الانتفاع من مثل تلك التجارب والاطلاع على مثل هذه القصائد القيمة التربوية[٢] ■

الهوامش:

١ - المفضليات للمفضل الضبي... تحقيق د. عبدالسلام هارون.

٢ - للمزيد من المعلومات يرجى الرجوع إلى ديوان الشاعر وإلى شرح المفضليات.